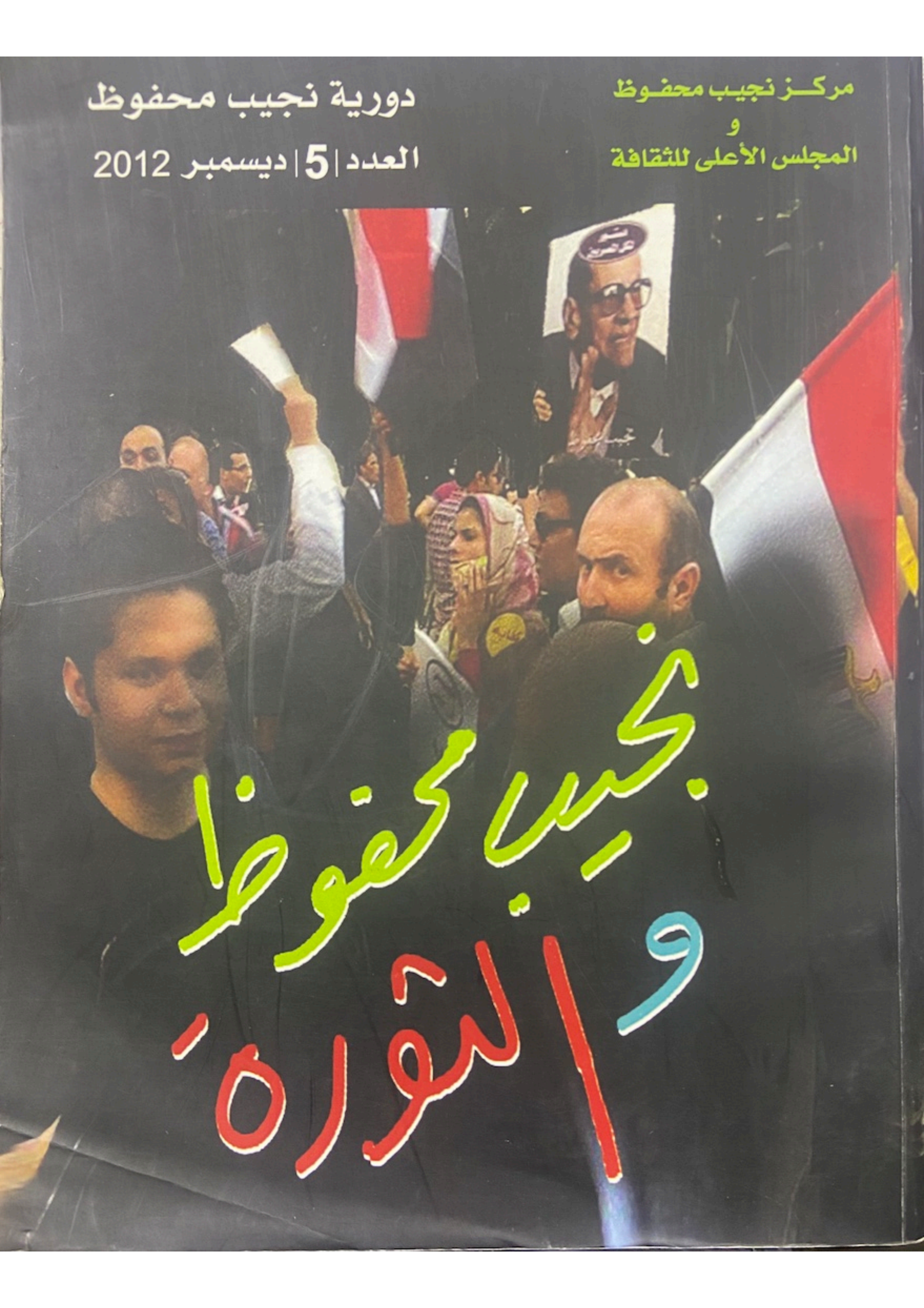

مركـز نجيب محفـوظ
و
المجلس الأعلى للثقافة
دورية نجيب محفوظ
العدد | 5 | ديسمبر 2012
نجيب محفوظ
و
الثورة

المجلس الأعلى للثقافة

و

مركز نجيب محفوظ

دورية نجيب محفوظ

العدد الخامس

ديسمبر ٢٠١٢

نجيب محفوظ و الثورة



٢٠١٢

فهرس

مفتتح :

نجيب محفوظ و الثورة :

ثورة الإنسان في قلب الليل

محمود الضبع

ترتبط الثورة في جوهرها بالوعي الإنساني، فالإنسان المفتقد لوعيه لا يمكن له أن يثور، وعلى النقيض كلما نما وعيه وتعمق كلما نما لديه الشعور بالثورة، ذلك لأن وعيه يجعله يتخذ موقفا من الحياة العامة من حوله، ويساعده على أن تكون له نقاط ارتكاز ينطلق منها، ويناضل من أجلها.. فالثورة طبيعة بشرية تؤكد رغبة الإنسان في تغيير مصيره، والارتقاء بمستوى حياته، وبناء المجتمع الذي يليق به أن يحيا فيه، كما أن الثورة تحمل في طياتها بذور التحضر الإنساني والقدرة على التفاعل مع متغيرات العصر، والحق في صياغة مستقبل أفضل.

نحن نثور من أجل الحياة، وليس من أجل الموت.

نحن نثور من أجل المستقبل وليس من أجل الماضي.

نحن نثور من أجل الآخرين، وليس من أجل أنفسنا فقط.

فالثورة إذن فعل إنساني يرقى إلى مستوى التشريف، ويؤكد في الوقت ذاته على وجود الإنسان وكرامته التي أكدت عليها الأديان السماوية، ومنحتها إياه القوانين الوضعية، ما دامت هذه الثورة تمتلك مسبباتها، وتسعى نحو النموذج الأفضل الذي ترتضيه الجماعة الواعية المدركة لفعلها، وليس معنى ذلك أن الثورة يجب عليها أن تكتسب تصديق المجموع عليها، فالثورة كما سبق وعي، والوعي عادة لا يكتسبه المجموع كلية، وإنما يكتسبه أفراد أو نخبة تستطيع استشراف آفاق لم يصل مداها بعد إلى العامة من البشر.

وتتعدد أشكال الثورة في حياة البشر، بين الثورة على الأعراف والتقاليد، والثورة على المعتقدات البالية –إن جاز التعبير -، والثورة على النظم السياسية ونظم الحكم، والثورة على الأفراد، والثورة على النفس، والثورة على الحياة ذاتها، وقد يبذل البشر أرواحهم في سبيل القيام بثورة مواجهين الموت راضين به مفضلين إياه على حياة يرون أنها لا تليق بهم، فيعبرون عن اعتراضهم عليها بأشكال عدة تبدأ من الفعل الفردي، وتنتهي بالأشكال الجماعية التي قد تضم فئة واحدة تنتمي إلى جماعة من الناس تربطهم ظروف بيئية واحدة، وقد تضم فئات متعددة من البشر مثل الثورات السياسية التي قد تشمل شعبا بأكمله أو الغالبية العظمى فيه.

الأبعاد الثورية في رواية قلب الليل[1]:

تمثل قلب الليل ثورة على الحياة، ثورة الإنسان ضد كل ما يسلب إرادته، وثورته ضد مجتمعه، وضد حتمه الذي يعتقد في أنه ليس حتما وإنما يمكن تغييره إذا أراد، وتبدأ هذه الثورة سرديا من جعفر الحفيد الذي يعترض على واقعه وعلى جده وعلى الأعراف والتقاليد التي أوصلته إلى حالة البؤس التي هو عليها وعلى الحياة التي فرضت عليه أشكالا لا يرتضيها، وعلى القوانين الإدارية التي حرمته من ميراثه الشرعي بموجب قانون الوقف، وعلى المعتقدات البالية التي جعلت جده يطرده من نعيمه عندما بدت للحفيد إرادة منافية لإرادته، والثورة على النفس التي تقبل أن تعيش الحياة على هذا النحو.

الثورة على الأعراف والتقاليد:

تمثل الأعراف والتقاليد مرتكزا أساسيا من مرتكزات صياغة وعي الأفراد، فالعادات التي نشأ عليها الإنسان في سياق مجموعه البشري تتحول شيئا فشيئا إلى سلوكيات عامة، ثم ما تلبث هذه السلوكيات أن تصبح عرفا يتقلده الجميع، ويعدونه الصواب وما دونه الخطأ، ومعنى ذلك أن الأعراف والتقاليد صياغة بشرية اتفاقية (قانون التواضع في اللغة، أي ما تواضع عليه البشر وارتضوه فهو عرف) تختلف من جماعة إلى أخرى، ومن بيئة إلى أخرى، وهو ما يجعلها نسبية بامتياز، ومن ثم تكون الثورة عليها مشروعة عرفا أيضا.

من هذه الفكرة الفلسفية البسيطة تنطلق رواية قلب الليل في رسمها لصورة جعفر إبراهيم سيد الراوي، فهو ثائر على نفسه، وثائر على جده، وثائر على أعرافه وتقاليده، وثائر على مصيره وعلى حالة البؤس التي هو عليها، وثائر على القوانين التي حرمته من ميراثه وهو أحوج ما يكون إليه.

يتهكم جعفر من الأعراف التي جعلت جده يطرد من داره (جنته كما يراها) كل من يحب امرأة من عامة الناس ويتزوجها، فعندما أحب إبراهيم الراوي (الأب) راعية وهام بها وتزوجها، طرده الراوي الكبير من داره منتصرا لعاداته وتقاليده، وكذلك تكرر الطرد والعقاب عندما تكررت ذات التجربة مع جعفر الابن.

كيف يتسنى للراوي الكبير أن يحرم حفيده من الميراث ويوقف كل ممتلكاته وقفا خيريا؟ أيُّ خيرٍ هذا الذي يحرم مستحقَّه الأصلي من كل أسباب الحياة ويعطيه لآخرين ربما لا يستحقونه؟ أي خير هذا الذي يجعل الأعراف والتقاليد هي عقيدته، ويرفض الإرادة الفردية؟

ألم يكن فعل إبراهيم الراوي/ الابن ثورة ضد الأعراف؟ ثم ألم يكررها جعفر الحفيد فيثور ضد ما ثار عليه أبوه؟

هكذا ينطق حال جعفر من خلال تهكمه وسخريته في الحكي عن حالته المزرية، وفي حكي الراوي (متخيل الروائي) عنه من خلال الراوي/ السارد/ موظف الوقف.

انحنى قليلا فوق مكتبي وأحد بصره الغائم، وضح لي من القرب ضعف بصره، نظرته المتسولة، ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور" ص3

ثم في مقول جعفر الراوي عن نفسه:

"ولكني أعتقد أنني تغيرت كليا، وأن الزمن وضع على وجهي قناعا قبيحا من صنعه هو لا من صنع والدي" ص 3

ولكن هل انتقلت روح الثورة من الشخصية المسرود عنها جعفر جعفر الراوي إلى شخصية السارد/ موظف الوقف، الذي كان على معرفة بكثير من تفاصيل حياة المسرود عنه؟ هل اعتملت الثورة في داخله ضد مجتمعه وحياته وأعرافه وتقاليده؟

ربما يكون نجيب محفوظ على وعي بأنه لم يكن يعنيه انتقال الثورة إلى وعي السارد، بقدر ما كانت تعنيه فكرة تمرير هذا الوعي إلى المتلقي، فهو الذي يقدم له شخصيتين متساويتين هما السارد والمسرود عنه تمثلان على نحو هندسي قاعدة المثلث، وشخصية أعلى مقاما يكاد يقترب بها إلى القدسية تمثل قمة المثلث، هي شخصية الجد، ويرسم على عادة البناء الهندسي ـ الذي يبدأ من الأسفل، يرسم ثورة صاعدة من القاعدة إلى القمة، فإلى أيها ستنحاز أيها المتلقي هاهنا؟ هل ستنحاز إلى القمة أم إلى القاع؟

ومتى كان اختيار القمة هو الأصوب دائما؟ أليس الثائر منتميا إلى المجموع (القاع) أكثر من انتمائه إلى الفرد (القمة)؟

على هذا النحو يطرح نجيب محفوظ الإشكالية، إشكالية الثورة والخيار الإنساني، وهو ما تؤكده إحدى التأويلات القرائية العديدة التي يحتملها النص في إمكاناته السردية.. إذ يمكن قراءة النص في سياق الثورة، وفي سياق الديني، وفي سياق الاجتماعي، وفي سياق الحكائي العادي أيضا.

الثورة على الحياة:

تختلف نظرة البشر إلى حياتهم، وتختلف مستويات قياسهم لها تبعا لقدراتهم العقلية وانتماءاتهم الفكرية وقدرتهم على التحرر من هيمنة الغير عليهم بين التبعية والاحتكام إلى ذواتهم، لكنهم يتفقون جميعا على شعور واحد هو عدم الرضا، فلا أحد يرضى عن عمله أو مصيره أو طبيعة حياته، ودائما يطاردهم هاجس الرغبة في التغيير، والسعي نحو البحث عن الأفضل، ويختلف البشر في مستويات اعتراضهم والتعبير عن عدم رضاهم تبعا لأنماطهم الثقافية وتكوينهم الفلسفي ودرجة وعيهم بما يعايشونه، وقدرتهم على بلورة مفاهيم حياتهم وتحديد موقعهم منها، وتتدرج هذه المستويات من مجرد تسجيل الاعتراض الشفاهي إلى اتخاذ موقف فعلي إلى الانفعال الذي قد يصل إلى حد الثورة والمجاهرة بها، وهو ما يؤكده نجيب محفوظ من خلال رسم شخصيات "قلب الليل " وبخاصة جعفر الراوي /الحفيد، وإبراهيم الراوي /الابن، فكلاهما كان اعتراضه على حياته بطريقة فعلية تميل إلى الثورية من قبيل الثورة ضد الحياة، فالرواي الكبير / الجد يمتلك ما يتجاوز به حد الثراء ويفرض ولاءه على الجميع، ويفرض عليهم نمطا من الحياة غير أن الابن إبراهيم الرواي يثور على حياته، ويقرر الثورة على جده (مانح الحياة ومانعها).

وتتضح المسألة على نحو أعمق عند جعفر الحفيد، الذي يكرر فعل والده بطريقته هو، بل يتنامى لديه الشعور بالثورة فتصبح عقيدة حياة، وإلا ما الذي يدفعه أن يقول معلقا على كلام موظف الوقف، وداعيا إياه إلى الثورة:

- **هي الحياة الإنسانية الأصيلة، جربها بشجاعة إن استطعت، اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكل ما تحتاجه هو حق لك، هذه الدنيا ملك للإنسان، لكل إنسان، عليك أن تتخلى عن عاداتك السخيفة، هذا كل ما هنالك.ص10**

إن جعفر الراوي يكاد يقترب من النمط الزوربوي كما رسمه كازانتزاكس في زوربا اليوناني، على الرغم من اختلاف الثقافة والبيئة والأوضاع الاجتماعية والدينية للمجتمع العربي الذي نشأ فيه جعفر الراوي قياسا إلى زوربا اليوناني، لكن كلاهما يتفق في الجرأة على الحياة والثورة عليها والانطلاق من فكرة إعلاء شأن الإنسان على الأرض، وحقه في اختيار الطريقة التي يتعاطى بها الحياة، زوربا تفتنه المرأة، وتفتنه اللحظة، ويسعى إلى المتعة، ويعب منها كما يعب من الحياة، وجعفر الراوي تفتنه المرأة، وينسجم مع الغناء، ويقدر قيمة المتعة كما يراها، وكلاهما (زوربا وجعفر) لا يحسبان للأمور عاقبة، ويريان الحياة مغامرة لابد من الاجتراء عليها وإعلان الثورة على كل ما يمكن أن يقف في سبيل استمرارهما فيها على النحو الذي يرتضيانه، ويريان أن الاتساق في الحياة يكمن في التناقض لا في الاتساق، وهو ما يكشفه الحوار بين جعفر الراوي،

وموظف الوقف عندما توطدت بينهما الصداقة، حيث يقول جعفر:

- **لا تحاسبني على التناقض، إني حزمة من المتناقضات، ولا تنس أنني عجوز، ولا تنس أنني أخوض معركة مع جدي منذ قديم.**
- **أود أن أعرف لماذا حرمك من ميراثك ؟**
- **هذه هي المعركة، لا تتعجل، لست بسيطا كما يتراءى لك، كثيرون ينخدعون في، حتى الصبية يجرون ورائي وأنا أتخبط في الشوارع، ماذا يظنون ؟ لقد تقدم بي العمر ولما تكف الأسئلة عن مطاردتي، صدقني فإنني شخص غير عادي، حتى في الجبل كنت غير عادي، ولا في القصر، ولا في الخرابة، ورغم التصعلك والتسول فإنني أقف أمام الحياة مرفوع الرأس متحديا، إذ أن الحياة لا تحترم إلا من يستهين بها... ص 10**

ألا يتجاوز ما يقره جعفر الراوي هنا مجرد الحكي على لسان شخصية في سياق السرد الروائي ؟ ألا يخترق هذا الكلام وعي المتلقي فيدفع به إلى عتبة السؤال ليقف أمام نفسه مسائلا إياها كيف يتعاطى الحياة وكيف يتعامل معها، وكيف يمكنه أن يعيد النظر ومتى وكيف يمكنه أن يثور عليها ؟

الثورة على المعتقدات والقيم:

يختلف المعتقد عن العقيدة، فإذا كانت العقيدة دينية بحتة، فإن المعتقد يمكنه أن يكون ديني، أوعلمي، ويمكنه أن يتفق مع الأديان أو يختلف معها، فالمعتقد هو كل ما يكتسبه الإنسان من معرفة تصل مداها عنده حد اليقين فلا يقبل فيها تشكيكا أو محاولة للتغيير، وتفرض عليه أشكالا من السلوك لا يتخلى عنها مهما اختلفت البيئات أو تعارضت مع مقتضياتها الحضارية، وهو ما تفسره سلوكيات الطعام والنوم والملابس وكثير من الممارسات الإنسانية في البيئات التي لم تمح ملامحها بفعل الإغراق في العولمة.

وينشأ المعتقد في شكل أفكار تتحول بمرور الزمن إلى قيم، وتكتسب صلابتها شيئا فشيئا بحيث يقر في النفس أن مخالفتها يؤدي إلى الهلاك أو الخراب على أدني تقدير، وينتقل هذا الشعور من الوعي إلى اللاوعي، بحيث تقر القيمة في النفس، ويخضع الإنسان لسلطانها ولا يعرف تفسيرا لهذا الخضوع سوى أن نفسه لا تطاوعه على مغايرة هذا الفعل ومقتضيات تلك القيمة، وهو ما يجعل مجرد مناقشة هذه القيم وتلك السلوكيات مع أصحابها أمرا شائكا منذ البداية، ما بالنا إذا بلغ الأمر حد انتقادها أو الاعتراض عليها.

هذا ما يفعله جعفر الراوي على مستويين، الأول على مستوى نفسه وانتقاده لمعتقداته التي وصل إليها هو عن قناعة، والثاني على مستوى انتقاده لمعتقد الآخرين، ويتجلى هذا الأخير في انتقاده لما يراه جده معتقدا:

ومد بصره الضعيف إلى لا شيء وراح يقول:

- **وقف خيري، حرمان من الميرات، هكذا فعله دائما مزيج من الخير والشر، ها هو يمارس سلطته ميتا كما مارسها حيا، وها أنا أكافح في موته كما كافحت في حياته.. وحتى الموت.**

يثور جعفر الراوي على المعتقد الذي انطلق منه جده، ويثور على العقيدة التي تبناها، فهو الذي يقول في موضع سابق من الرواية معترضا على وقف أملاك جده على الحرمين الشريفين ومسجد الإمام

الحسين وبعض الجمعيات الخيرية والمدارس والتكايا والأسبلة:

- **ولكني حفيد الراوي، ووريثه الوحيد، وإني في مسيس الحاجة إلى مليم على حين أن الإمام الحسين غني بجنات النعيم. ص 5**

وإلى المستوى الأول مستوى الثورة على المعتقد الذي استقر في نفسه هو، يثور جعفر الراوي على كل ما رآه في زمن ما مستقرا، ولذا يعبر هو عن نفسه في موضع ما بأنه ينتقل نقلات نوعية من النقيض إلى النقيض، يقول:

- **إذن فقد عشقت العقل وحلمت طول الوقت بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هدية إلهية لنا، أحلم بألا يكون لنا من محرك إلا العقل، ولا هدف إلا العقل، ولا سلوك إلا من وحي العقل، أحلم بحياة عقلية خالصة يستوي العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكن الغرائز على أرض الطاعة والعبودية، حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملا مثل "أعرف بقلبي" أو "ألهمتني عواطفي" أو "التعبير الوجداني للحياة"، وصببت غضبي على حجم الشعور واللاشعور، وجبل فرويد المطمور تحت الماء إلا قمته، إذ أن المسألة ليست مسألة حجم ولكنها مسألة القيمة أولا وأخيرا، أردت لقمة الإنسان – عقله – أن يحكم وأن يسيطر، حتى في شئون الغذاء والجنس، والحب نفسه أي قيمة له إذا لم يقتنع به العقل تماما ؟ ص118**

أليس الاحتكام إلى العقل والإعلاء من شأنه ثورة على كل المعتقدات التي يمكن أن يعتنقها الإنسان؟ ألا يفرض المعتقد على العقل التبعية المطلقة ويلغي كل محاولة له أن ينفصل عنه ؟ ألا يمثل جعفر الراوي هنا ثورة على كل ما هو قار، وكل ما يمكن أن يستقر، ومن ثم تكمن هنا صدمة الوعي وصدمة التلقي في طرح سؤال التشكيك والثورة على العقل ذاته، ومن ثم الثورة على كل ما يتوصل إليه هذا العقل من معتقد.

الثورة على النظم السياسية والقوانين الوضعية:

تعد القوانين الوضعية والنظم السياسية أكثر المواضع التي يمكن للإنسان أن يثور عليها، إذ يقر في أنفس كثير من الناس أن القوانين والنظم وضعت لأجل عرقلته وليست لحمايته، وهو ما يجعله يقف منها موقف العداء في كثير من الأحيان، ومن ثم تكون احتمالات الثورة عليها قائمة في أي وقت بمجرد اصطدامه بما يخالف رغباته أو مصالحه، أو ما يراه هو من قبيل الخير الإنساني، في حين أن القوانين بصرامتها المعهودة لا تقدر هذه الإنسانية.

ومن جهة أخرى يعتقد كثير من البشر أن القوانين توضع في الأساس لحماية الأغنياء من الفقراء، وهذا في ذاته يجعل محاربة تعسف هذه القوانين والثورة عليها أمرا ضروريا لصالح الإنسانية وسلامة الحياة، ومن هنا ينطلق فكر جعفر الراوي في انتقاده للقوانين الوضعية والسخرية منها وإعلان الثورة عليها:

ولما أكل وشرب اعتدل في جلسته وقال:

- **أشكرك لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك، لا شك أنك اطلعت على طلبي بحكم وظيفتك، فما رأيك؟**

قلت بأسف:

- **لا فائدة، نظام الوقف لا يسمح بشيء من ذلك..**
- **ولكن الحق واضح مثل الشمس..**

- **الوقف واضح أيضا..**
- **كان القانون ضمن ثقافتي ولكني أعتقد أن كل شيء يتغير..**
- **إلا الوقف فإنه حتى اليوم لم يتغير..**

فهدر صوته الخشن صائحا:

- **لن يضيع حقي أبدا، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف. ص4، 5.**

ثم يقول في موضع آخر مؤكدا استمراره في الثورة على القوانين واللوائح الإدارية والكفاح من أجل ما يراه حقه ويجب أن يحصل عليه مهما كلفه الثمن من حياة:

- **صدقني، سأكافح، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجن، فلتكن معركة، لن أكف عن القتال حتى أنال حقي الكامل من تركة جدي اللعين ! ص7**

ولا تتوقف محاولته عند هذا الحد، لكنه يعيدها مرة أخرى في حواره مع موظف الوقف:

- **هل وقع اختيارك على محام ثقة لنذهب إليه ؟**

فقلت متوسلا:

- **انس بالله هذه القضية الوهمية يا جعفر.**
- **ألست جعفر إبراهيم حفيد سيد الراوي ؟**
- **بلى ولكن لا توجد قضية على الإطلاق..**

فصاح:

- **إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون.. ص 11**

ثم في حركة سردية أخرى يعبر جعفر الراوي عن ثورته على النظم السياسية والشأن العام في عصره، وهو عصر الحركات السياسية الكبرى في مطلع السبعينات في مصر، حيث كانت مصر مسرحا للأحزاب السياسية والفلسفات الوضعية والحركات الدينية التي لم تشهدها مصر ولا الوطن العربي من قبل ولا من بعد – على أدنى تقدير بمثل هذه الكثافة-:

- **في مكتبي بميدان باب الخلق غزتني السياسة بعنف لأول مرة، وعلى غير توقع. اصطرعت في حجرة مكتبي أفكار الليبرالية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية والسلفية الدينية والفاشستية. وجدتني في دوامة صاخبة دار بها رأسي، وعملا بمبدئي في تقديس العقل نزعت إليه أسأله الرشد وسط ذلك الطوفان " ص 128**

ثم ينتهي هذا الحراك بالثورة عليه جميعه في محاولة للتوفيق بين متناقضاته أولا، ثم في الثورة عليه جميعا والبحث عن مخرج للعقل بديلا عن ذلك.

الثورة على الأفراد:

يثور جعفر الراوي على كل الأفراد من حوله – تقريبا – فيثور على موظف الوقف، وعلى جده، وعلى مروانة حبيبته التي تزوجها وأنجب منها، وعلى "هدى" التي أحبته وتزوجته وشملته بالرعاية والعناية وفتحت له آفاق التعليم والحصول على شهادة الحقوق وافتتاح مكتب للمحاماة في باب الخلق، ثم ثورته على صديقه "سعد كبير" الذي انتهى الأمر بأن قضى على حياته.. لم تكن ثورة جعفر الراوي على الأفراد من قبيل التمرد وخيانة من ساعدوه، وإنما

كانت من قبيل الاعتراض على هؤلاء الأفراد في انحرافاتهم العقلية.

- **كنت أتقدم مترع القلب بالإيمان والقداسة، أستضيء بمثل جدي في الحياة، بحياته الجميلة الغنية التي عاشرتها في قصره، بأصدقائه ومناقشاته وطربه، ولكن كانت تمر بي ساعات سوداوية، تسلل إلى من مكامنها فتغير مذاق الحياة، وتغشاني سحب الذكريات السود، فأفكر بحياة النفي التي عاناها أبي، ومأساة أمي ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذلك يثور غضبي على جدي، وأحاسبه في الخيال حسابا عسيرا، ويتبدي لي شيطانا في ثوب ملاك، وأقول ما هو إلا رجل من الأعيان يستمتع بكل طيب في الحياة ويزعم أنه قديس إلي.ص54.**

وعندما يتحدث جفر الراوي مع جده في أمر الزواج، ويعرض عليه الجد الزواج، يرفض الحفيد، ويثور على جده، وعلى نفسه، وهو الذي يعبر عن ذلك عبر السرد الروائي قائلا:

- **رجعت إلى حجرتي هائجا فلم يغمض لي جفن حتى ترامى إلي آذان الفجر، شحنت بقوة جبارة وأردت أن أنهال على الجدران فأدكها دكا، انطلق المارد متحديا، صمم على نيل فتاته ولو على أنقاض الحي كله لا القصر وحده، وناجيت أبي وأمي طويلا، وثار غضبي على جدي بلا حساب، إنه لا يريد أن يكفر عن جريرته، وما يزال غرامه عنيفا بالتسلط والقهر، وفي حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بيني وبين جدي.... ص 69**

لم تكن ردة فعل جعفر الراوي على هذه الشاكلة تسجيل مجرد اعتراض على رفض شاب للزواج، وإنما ينقلها جعفر إلى مستوى الثورة على الجد فيحاسبه على التاريخ الذي لم يكن جعفر حاضرا فيه وهو تاريخ أبويه عندما تخلى عنهما الراوي الكبير وتركهما للمصير المؤلم، ثم يحاسبه على سنواته التي عاشها في اليتم والفقر، وأخيرا يحاسبه على اعتراضه ضد رغبته في الزواج من مروانة الراعية التي أحبها وهام بها ورأى أنها منتهى الحياة وقمة آمالها.

الثورة على النفس:

يثور الناس في الواقع على غيرهم، لكنهم قلما يثورون على أنفسهم بشكل حقيقي، قد يسجل البعض اعتراضا ذاتيا على تصرف بدر منهم، وقد يحاسب البعض نفسه، لكن أن يصل الأمر إلى حد محاكمة النفس وإعادة النظر في الأفكار والقيم والمعتقدات والتقاليد ومواجهة الذات مواجهة مريرة يحكمها الرغبة في التغيير الكلي، فجعفر الراوي يثور على نفسه على الرغم من استقرار حياته في بيت جده على نحو مبدئي يبشر بمستقبل واعد، فبعد اليتم والفقر والتشرد يفتح له جده أبواب النعيم، ويلحقه بالأزهر الشريف، ويسمح له بحضور اللقاءات الثقافية في القصر مع أعلام الفكر والأدب والدين، ويستمع إلى الإنشاد الديني وحلقات التصوف، لكن جعفر الراوي يتوق إلى حياة الحارة واللعب مع الأقران، ويثور على نفسه، ويحقق ما يريد، ثم تأتي الثورة الثانية الكبرى في مجال الثورة على النفس عندما يحب مروانة، ويقرر تغيير حياته ومصيره كلية والانتصار لنفسه مهما كلفه ذلك من ثمن، بل لم يكن احتساب الثمن في حسبانه فهو الذي يتغير في مواقفه من النقيض إلى النقيض، يقول في حواره مع موظف الوقف (ابن حارته القديم):

- **الحب هو الحب، إني أصدق جميع ما يقال عنه..**

- **وتؤمن بأنه يصنع المعجزات والعجائب ؟**
- **أجل، لست غرا، ولكن حدثني عن حبك يا جعفر، عن نوعه، راعية غنم حافية الأقدام قد تشعل الدم..**
- **كان كذلك، نداء للدم، نداء صارخ دافع للحركة، مغر بالجنون والمهالك، يقتحم الأبواب والنوافذ ويرتكب الجرائم وينتحر..**
- **فقلت بدهشة:**
- **ولكنك كنت وليا من أولياء الله الصالحين.**
- **لكي تعيش تجربتي تصور أنك فقدت الذاكرة فجأة وأنك أصبحت شخصا جديدا.**
- **ولكن الفرد يتغير بالتدريج فيما أتصور.**
- **كلا.. كلا.. إني أتغير من النقيض إلى النقيض.. فجأة..!**
- **لا شك أنه يحدث في الظلام أمور كثيرة بعيدة عن وعيك.**
- **الإنسان يخلق المنطق، ولكنه يتجاوزه في حياته، والطبيعة يا عزيزي تستعمل الطفرة كما تستعمل التطور ! ص 66- 67.**

أما الثورة الثالثة على النفس فكانت مع التحولات التي أحدثها تعليمه بعد التحاقه بالجامعة ودراسته للقانون، وبعد اطلاعه على كتب الفلسفة والأدب، واختلاطه بحركات الفكر السياسي التي كانت في أوج نشاطها في مطلع السبعينات، والتي تنتهي بقتل "سيد كبير".

ثم تأتي الثورة الرابعة والأخيرة على النفس عندما يفاجئ جعفر الراوي صديقه موظف الوقف بأنه لن يكتب طلب الالتماس للحصول على معونة من وزارة الأوقاف نظير وقف جده، وهو أحوج ما يكون إلى هذه الإعانة الشهرية، وهو ما يكشفه الحوار الذي يدور بينه وبين صديقه موظف الوقف، عندما يستنكر عليه موظف الوقف قائلا:

- **أتعني أنك لن تكتب الالتماس ؟**
- **قطعا !**
- **ولكنه الجنون عينه...**
- **سمه ما تشاء، لقد حرمني الراوي من تركته، وإني أرفض أن أتسول منها مليما واحدا.**
- **ولكنك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان ما تنفد النقود المتبقية لديك.**
- **أعرف هذا حرفا حرفا ولكني أعند من الراوي نفسه.**
- **دعني أكتب الالتماس بنفسي.**
- **إني أرفض. ص153- 154.**

إن ما يمنع جعفر الراوي من كتابة الالتماس هنا هو أخلاق الثائر التي تسيطر عليه وتمنعه من استجداء الحكومة للحصول على هذا المبلغ الزهيد وهو حق له أن يكون له ما يليق بكرامته، هذه هي أخلاق الثائر الذي تحركة دوما مشاعر الكرامة والعزة والثقة في القدرة الإنسانية والقدرة على تغيير المصير، مصير الفرد، ومصير الجماعة، ومصير الأمة، ومصير الإرادة الإنسانية جمعاء.

وبعد..

فإذا كان نجيب محفوظ قد بلور من خلال روايته "قلب الليل" علاقة الإنسان بالثورة وأنماط تشكلها وتشكيلها، فإنه لم يكن يهدف لكتابة ثورة لها

خصوصيتها وقعت أو يمكن أن تقع في وطن ما، وإنما كان يسعى إلى التأصيل لمفهوم وصورة الثورة الإنسانية وأشكالها أينما كانت وأينما ستكون مع الإنسان العربي الذي يعيش التناقض دائما بين واقعه السياسي والاجتماعي والنفسي من جهة وبين ثقافته وفكره ووعيه وتمرده من جهة أخرى.

هوامش:

1) نجيب محفوظ: قلب الليل – مكتبة مصر – القاهرة – ط3 – 1981م.